لسانيات النص والبلاغة العربية

قراءة في المعايير النصيّة وجذورها في التراث البلاغي

د. عبد الرحمن النعاس الطاهر ـ قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب جامعة سبها

الملخّـــص :

تتمحـــور هذه الدراســـة حـول المعايير النصية التي جاءت بها اللسانيات الحديثة، وبيان جذورها أو أصولها في التراث البلاغـــي والنقدي من خلال عرض هذه المعايير، ومن ثم عرض ما ذكره علماؤنا وله صلة مباشـرة بهذه المفاهيـــم ، خاصة وأن اللسانيات النصية قد انفتحت على المباحث البلاغيـــة بشكل أوسع بعد انتقالها من النظرة الجزئية للجملة (نحو الجملة) إلى النظرة الكلية للنص باعتباره وحدة واحدة، وذلك سعيا منا لإبـــراز جانب من الجوانب التي تلتقـــي فيها اللسانيات الحديثة مـــع التراث البلاغي والنقدي، وبيان أن اللسانيات النصية في كثير من جوانبها تعدّ امتدادا وتطويرا للدراسات البلاغية القديمة وإضافة لأدواتها الإجرائية التي لا يمكن الاستغناء عنها في تحليل النصوص ، فالبلاغة عالجت الكثير من القضايا التي هي اليوم من اهتمامات علم النص، فما يجمعهما أكثر مما يفرقهما، سواء من حيث المفاهيم أو الأدوات أو الموضوع، وهذه العلاقات القائمة بين القديم والحديث إذا استثمرت فستحدث تحولا كبيرا على مستوى الدراسات الأدبية والنقدية، وستفتح آفاقا جديدة في فهم النص ومعرفة خصائصه.

Research Summary

This study is centered around the textual standards brought by modern linguistics, and explaining their roots or origins in the rhetorical and critical heritage by presenting these standards and then displaying what our scholars have mentioned that has a direct connection to these concepts, especially since textual linguistics has opened up to rhetorical investigations more broadly After moving from a partial view of the sentence (sentence grammar) to a comprehensive view of the text as a single unit, we seek to highlight one of the aspects in which modern linguistics meets the rhetorical and critical heritage, and to show that textual linguistics in many of its aspects is an extension and development of ancient rhetorical studies and an addition For its indispensable procedural tools in text analysis, Rhetoric has addressed

many of the issues that today are among the concerns of textual science. What unites them is more than what separates them, whether in terms of concepts, tools, or subject matter. These relationships between the ancient and the modern, if invested, will bring about a major transformation at the level of literary and critical studies, and will open new horizons in understanding and knowing the text. Its characteristics.

المقدمـــــــــة:

اتجهت اللسانيات النصية إلى دراســة النص كوحدة لغوية كبرى وفق وسائل لغوية نصية يتحقّق من خلالها الترابط والاتساق والانسجام ؛ جاء ذلك نتيجة لتطوّر الدرس اللســاني الذي انتقل من النظرة الجزئية للخطاب(نحو الجملة) إلى النظرة الكلية الشاملة للنص باعتباره وحدة متناسقة، بداية من (هاريس) في كتابه :(تحليل الخطاب) الذي دعا إلى دراسة العلاقات النحوية بين الجمل ، ثم تطــوّر على يد (فان دايك) الذي دعا إلى ضــرورة أن يشتمل الوصف النحوي العلاقات بين الجمل على المستوى السطحي والعميق ، ثم جاء (روبرت دي بوجراند) الذي وضع المعايير الواجب توافرها في النص، وهــي : السبك ، والحبك ، والقصدية، والمقبولية، والإعلامية ، والمقامية، والتناص ؛ وأصبحت بذلك اللسانيات النصية هي المنهجية المثلى في تحليل النص والوقوف على جمالياته وقيمه البلاغية التي لا تدرك من خلال نحو الجملة.

ولما كانت البلاغة بمفاهيمها وأدواتها الإجرائية ليست بمعزل عمّا جاءت به الدراسات الحديثة ـ خاصة المعنية بالتواصل والخطاب والسياق ــ جاءت هذه الدراسة لعرض معايير النصية ومفاهيمها التي وضعها (دي بوجراند) على التراث البلاغــي والنقدي من خلال الكشف عن بعض ما ورد في مصنفاتهم وله ارتباط وثيق بهذه المعايير التي نحسبها أسسا مرجعية لهذه المعايير، فالدرس البلاغــي غني بمباحث تُعنى بتحقيق التماسك النصي ، لاسيما وأن الدّراسات والأبحاث البلاغية قامت على دراسة النص القرآني ، وقد أقرّ العديد الباحثين وعلى رأسهم (فان دايك) بأن علم البلاغة هو السابقة التاريخية لعلم النص ، نظرًا للعلاقات الكثيرة التي تجمع بينهما ، فهما ينطلقان من مبدأ إيجاد قواعــد وأسس لإنتاج الخطاب وتلقيه وتحليله ؛ لذا يسعى هذا البحث إلى إبراز بعض أوجه التقارب بين تلك المعايير وما جاء في التراث البلاغي والنقدي.

واقتضت طبيعة الدراسة أن تقسّم إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة : المبحث الأول: يتناول لسانيات النص : نشأتها وتطورها ، ومفهومها، والمعايير النصية ، وأما المبحث الثاني

: فيتناول جذور المعايير النصية في التراث البلاغي والنقدي ، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول ــ لسانيات النص ـ النشـــــأة والتطور:

تعد لسانيات النص فرعا من فـــروع اللسانيات تُعنى بدراسة النص من حيث وحدته وتماسكه ومحتواه البـلاغي والتواصلي ، حيث انتقلت من دراسة الجملة إلى دراسة ما هو أوسع منها شكلا ودلالة ؛ فأتاحت للباحثين والقــرّاء " أن يقفوا في النص المدروس على عناصر وخصائص وعلاقات لم يكن بوسعهم الوقوف عليها بنحو الجملة أو لسانيات الجملة [1]

وقد ظهر هذا الاتجاه في الدرس اللسـاني بعد أن رأى الباحثون أن المنهج البنيوي القائم على دراسة الجملة باعتبارها أقصى وحـدة نظامية يمكن أن يصل إليها التحليل اللساني لا يفي بدراسة اللغـــة ، فلسانيات الجملة مبنية على " تحليل بناء الجملة تحليلاً لُغويا يكشـف عن أجزائها ويوضح عناصرها وتركيباتها وترابط هذه العناصر بعضها مع البعض الآخر، بحيث تؤدّي معنى مفيدًا ، يُبيّن علائق هذا البناء ووسائل الربط بينها" ؛ لتدرس النص وفقا لذلك على صورة وحدات شكلية منفصلة دون النظر إلى النص باعتباره نسيجا واحدًا، وبمعزل عن مختلف السياقات التي أنتجتها؛ ولا يمكن من خلال ذلك فهم الظاهرة اللسانية ؛ على اعتبار أن كثيرًا من الظواهر اللغوية لا يمكن تحليلها وفهمها على مستوى الجملة ، وذلك ما دفع اللسانيون إلى إيجاد منحى جديد لتحليل بنية النص باعتباره شبكة من العلاقات النحوية والدلالية والتداولية لا يمكن الفصل بينها، فكان لزاما الانتقال من النظرة الداخلية الجزئية المرتبطة بالجملة إلى النظرة الكلية المرتبطة بالنص ووضع قواعد عامة تنطبق على مجمل النصوص آخذين بعين الاعتبار مختلف الظروف المحيطة بالحدث اللغوي.

وكانت بدايات هذا الاتجاه في سنة 1952م من خلال ما نشـره (هاريس) في بحثه المعنون بـ : (تحليل الخطاب) قدّم فيه منهجا لتحليل الخطاب المترابط ، ركّز فيه على نقطتين رئيسيتين :

ـ العلاقات التوزيعية بين الجمل .

ـ الربط بين اللغة والموقف الاجتماعـــي.

اعتمد (هاريس) في تحليله على المنهج البنيوي التوزيعـي أو ما يسمّى باللسانيات التوزيعية التي عنيت بتحليل الجملة ، فجاء بحثه امتدادا للسانيات الوصفية التوزيعية وتوسيعا لمجال تطبيقها حيث استعمل في تحليله للنصوص نفس التقنيات والأدوات المستعملة في تحليل الجملة اقتناعا منه أن للمنهج التوزيعي القدرة على تحليل الكتل الكلامية مهما كان طولها، فكانت هذه المحاولة أولى الخطوات للانتقال من المناهج البنيوية التي كانت تهتم بالجملة أو (نحو الجملة) في التحليل إلى مستوى النص[2] .

ثم شهدت الأبحاث اللسانية توجّها كبيرًا نحو لسانيات النص منذ منتصف الستينات، حيث اتخذها الباحثون بديلا للسانيات الجملة ، الأمر الذي كان له عظيم الأثر في الدّراسات اللغوية ، وفتحت آفاقا جديدة في دراسة اللغة ووظائفها النفسية والاجتماعية والفنية والإعلامية [3] ، فظهرت دراسات وأبحاث عديدة ، منها الدراسات التي قدّمها فلاسفة اللغة : أوستين، وسيرل ، وجرايس.

وتطورت هـــذه الدراسات النصية في السبعينيات على يد (فان دايك) مؤسس اللسانيات النصية ، الذي عمل على وضع مبادئ وأسس لهذا العلم من خلال كتابه :

(بعض مظاهر أنحاء النص) سنة 1972م، ركّـــز فيه على البنية النحوية التركيبية للنص ؛ حيث عكف على التقعيد لأهـم الأدوات التي تضمن الترابط اللفظي للنص، ولما كانت سلامة البنية النحوية التركيبية للنص ليست العامل الوحيد الذي يضمن نصية النص ومعناه، سعى إلى وضع نحو عام للنص ، آخذا فيه بعين الاعتبار كل الأبعاد البنيوية والسياقية والثقافية ، أي : الجوانب الدلالية والتداولية في كتابه : (النص والسياق) سنة 1977م [4] ، يقول (فان دايك) : " لقد توقفت القواعد واللسانيات التقليدية غالبا عند حدود وصف الجمل... وأما في علم النص، فإننا نقوم بخطوة إلى الأمام، ونستعمل وصف الجمل باعتبارها أداة لوصف النصوص، وما دمنا سنتتبع هنا المكونات المعتادة للقواعد، وسنستعمل النصوص المستخدمة بغية وصف الجمل، فإننا سنستطيع أن نتكلم عن قواعد النص"[5] .

وقد ظهـرت في هذه الفترة دراسات أخرى كانت لها التأثير المباشر على الدراسات النصية ككتاب (هاليدي) و(رقية حسن) عن الاتساق في اللغة الإنجليزية 1976، الذي طـوّر مفاهيم علم اللغة النصي في اللغويات البريطانية ، وقصدا بالاتساق " ذلك التماسك الشديد بين العناصر المكونة لجزء من الخطاب ومن أجل وصف هذا الاتساق يتم التحليل بطريقة خطية من خلال تبيين الضمائر والإشارات المحيلة ووسائل الربط

المتنوعة"[6] ، كما قدم ـ أيضا ـ الباحث الأمريكي (روبرت دي بوجراند) من خلال كتابه : (النص والخطاب والإجراء 1980) اقتراحاته في إنشاء علم للنص ، يهدف إلى دراسة النص من زوايا مختلفة؛ بداية من الرصف إلى المفاهيم إلى تطبيق نتائج الدراسة على المحادثة والقصص وصور الإنتاج النصي الأخرى ، ثم الانتفاع بهذا العلم في القراءة والكتابة وتعليم اللغات [7] ، وبذلك انتهجت لسانيات النص نهجا شموليا بعد استفادتها وتفتحها على علوم أخرى أهمها التداولية فعنيت بكل أبعاد النص البنيوية ، والدلالية، والتداولية، وهو ما تجلى من خلال المعايير النصية التي وضعها (دي بوجراند)

1ـ 2. مفهوم لسانيات النص : أورد الباحثـــون العديد من التعريفات لهذا الفرع من علوم اللغة ، وأُطلقت عدة مصطلحات للدلالة على هذا الاتجاه الجديد في الدرس اللساني، منها مصطلح : علم النص، وعلم دلالة النص، وعلم نحو النص، والتداولية النصية ، وربما كان مصطلح : لسانيات النص، هو الأنسب باعتباره جامعا لكل البحوث المتعلقة بالنص ، وتبعا لاختلاف التسميات اختلفت التعريفات – أيضا- وإن كانت في مجملها تصب في اتجاه واحـــد وهو دراسة النص كوحدة لغوية كبرى تستهدف الوقوف على آليات البنى النصية التحليلية والتركيبية والوقوف على وظائفها وكفاءاتها التواصلية ضمن سياقاتها المختلفة.

فلسانيات النص كما ذكر إبراهـــيم الفقي الذي اعتمد مصطلح (علم اللغة النصي) أن هذا العلم "هو ذلك الفرع من فروع علم اللغة ، الذي يهتم بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها الترابط أو التماسك ووسائله، وأنواعه، والإحالة، أو المرجعية وأنواعها ، والسياق النصي ودور المشاركين في النص (المرسل والمستقبل) ، وهذه الدراسة تتضمن النص المنطوق والمكتوب على حد سواء"[8] ، وبالتالي فإن لسانيات النص علم يهتم بدراسة النص من كل جوانبه و لا يتوقف عند حدود الترابط اللغوي أو المستوى السطحي للنص ؛ وإنما هو علم يعني بكل جوانب النص التركيبية الدلالية و التداولية ، ويرى جميل حمداوي أن لسانيات النص يقصد بها "ذلك الاتجاه اللغوي الذي يعنى بدراسة نسيج النص انتظاما واتساقا وانسجاما، ويهتم بكيفية بناء النص وتركيبه. بمعنى : أن لسانيات النص تبحث عن الآليات اللغوية والدلالية التي تسهم في انبناء النص وتأويله... فلسانيات النص هي فرع من فروع علم اللسانيات، ويتعامل مع النص باعتباره نظاما للتواصل والإبلاغ السياقي"[9] ، ومن ثم فإن لسانيات النص تقوم بدراسة النص باعتباره "مجموعة أو فضاء ممتد وواسع من

الجمل والفقرات والمقاطع والمتواليات المترابطة شكلا ودلالة ووظيفة، ضمن سياق تداولي وتواصلي معين، ومن ثم يحمل مقصديات مباشرة وغير مباشرة ويهدف إلى الإبلاغ أو الإمتاع أو الإفادة أو التأثـــير أو الإقناع أو الحجاج"[10] .

وذكر (ديفيد كريستال)أن علم النص هـــو: "العلم الذي يبحث في سمات النصوص وأنواعها وصور الترابط والانسجام داخلها، ويهدف إلى تحليلها في أدق صورة تمكننا من فهمها وتصنيفها ووضع نحو خاص لها، مما يسهم في إنجاح عملية التواصل التي يسعى إليها منتج النص ويشرك فيها متلقيه أو هو الدراسة اللغوية لبنية النصوص"[11].

فلسانيات النص هي فرع من فروع اللسانيات معنية بدراسة النص كبنية واحدة في جميع مستوياته الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية ضمن سياق تداولي وتواصلي معين بغية الوصول إلى دلالة النص الكلية التي هي قصد المنتج وغرضه.

1-3. معايير النصية : النصية أو النصانية ، هي قواعد أو معايير لصياغة النص، وقد ذكر (دي بوجراند)، و(دريسلار) خصائص النص في تعريفهم لمفهوم النص بقولهم: "إنه حدث تواصلي يلزم لكونه نصا أن تتوفر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير، وهي:

1 ـ السبك أو الربط النحوي
2 ـالحبك أو التماسك الدلالي وترجمها د. تمام حسان بالالتحام.
3 ــ القصد أي هدف النص.
4 ــ القبول أو المقبولية وتتعلق بموقف المتلقي من قبول النص.
5 ـــ الإخبارية أو الإعلام أي توقع المعلومات الواردة فيه أو عدمه.
6 ـــ المقامية وتتعلق بمناسبة النص للموقف
7 ـــ التناص[12]

وفيما يلي عرض موجز لمفاهيم هذه المعايير بحسب تصنيفها[13] :

ما يتعلق بالنص في ذاتـــــه:

1- الســـــبك: ويختص بالوسائل التي تحقق الترابط على المستوى السطحي للنص كبناء العبارات والجمل واستعمال الضمائر وغيرها؛ فهو يعني بالطريقة التي يتم بها ربط الأفكار في بنية النص. وينقسم السبك إلى:

السبك النحوي ، ويشمل: الإحالة بنوعيها، والاستبدال، والحذف، والربط.

السبك المعجمي ، ويشمل: على علاقتي التكرار، والمصاحبة اللغوية أو التضام([14])

ونشير هنا إلى اختلاف ترجمة المصطلح إلى العربية من باحث لآخر، حيث نجد كل من : الترابط النحوي، الاتساق، التضام، والتناسق، كمرادفات لمصطلح السبك.

2 ـ الحبك : هو ذلك الترابط المعنوي للنص، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالبنية العميقة للنص ومتلقيه؛ فالحبك يعتمد على علاقات داخلية وعناصر مقامية متعالقة يتم بواسطتها فهم النص، فهو يبحث في الكيفية التي تمكن متلقي النص من إدراك معناه من خلال القضايا المكونة له والنظام العام الذي جاء عليه. وتشتمل وسائل الحبك على: العناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص، ومعلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف، والسعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية، ويدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرفها النص من المعرفة السابقة بالعالم ([15]) ، ولهذا المصطلح مرادفات عديدة متداولة عند الباحثين ، لعل من أهمها : التماسك الدلالي ، والحبك، والترابط الفكري.

ما يتعلق بمنتج النص والمتلقي:

3 ــ القصديـــــة : بما أن النص في الأساس فعل اتصالي و تواصلي في الآن نفسه، فإنه يحمل لا محال مقصدية معينة، يقول (دي بوجراند) أن القصد في النص: "يتضمن موقف منشئ النص من كونه صورة ما من صور اللغة، قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالسبك و الالتحام و أن مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها"([16]) ، فلابد من توافر القصدية في النص، ولا يكتفي منتج النص بالدلالات الكامنة فيه؛ لذا يقوم منشئ النص بتوظف مجموعة من الوسائل كالاتساق والانسجام لضمان تماسك نصه والوصول إلى غايته([17]) .

4ـ القبول أو المقبولية : وتتعلق المقبولية بموقف المتلقي من قبول النص، وقبول النص مرتبط بمجموع الدلالات التي يطرحها النص بشرط تماسكها والتحامها وتحديدها بحيث يستقي منها المتلقي معرفة من نوع ما([18]) .

ــ ما يتعلق بالسياق المحيط بالنص:

5ـ الإخبارية أو الإعلام : ويتعلق هذا المعيار بالمعلومات التي يحملها النصّ للمُتلقي من حيث توقعها أو عدم توقعها، فإن كانت المعلومات التي يحملها النص متوقعة عند

المتلقي فيوصف النص بأنه أقل إعلامية، وإن كانت المعلومات غير متوقعة عند المتلقي فيوصف النص بأنه أكثر إعلامية وكفاءة. وهذا المعيار يشكل عنصرا مهما من عناصر النص، وتختلف فيه درجة الإخبار من نص إلى آخر بحسب نوعيته وغايته، ولابد من احتواء النص على معلومات توصف بالجدة والتنوع[19] .

وجعل (دي بوجراند) للإعلامية ثلاث مراتب، هي:

1 ـ **إعلامية الدرجة الأولى** : وهي المحتوى المحتمل لتركيب المحتمل، ومن شأن المحتوى المحتمل لتركيب محتمل أن يكون سهل الصياغة قليل الإعلامية.

2 ـ **إعلامية الدرجة الثانية :** وهي المحتوى غير المحتمل في التركيب المحتمل أو المحتوى المحتمل في التركيب غير المحتمل، من شأنه أن يتسم بالتحدي، ومع ذلك لا يدعى له دائما أنه مثير للجدل بلا سبب.

3 ـ **إعلامية درجة ثالثة :** وهي المحتوى غير المحتمل في التركيب غير المحتمل، ومن شأنه أن يكون صعب الصياغة، مثير للجدل، وتكشف النصوص الشعرية والأدبية عن هذين الائتلافين الأخيرين[20] .

المقاميـــة: تتعلق بالعوامل التي تجعل من النص مناسبا للموقف، يقول دي بوجراند :"هي تتضمن العوامل التي تجعل من النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه، ويأتي النص في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف وأن يغيره"[21] فالمقامية توضح المقصود من النص، وتساعد على فهم النص وتأويله. ويندرج الموقف ضمن أنواع السياق الأربعة وه ي: السياق اللغوي، السياق العاطفي، السياق الثقافي، السياق الموقفي.

التناص: ويقصد علاقة النص بنصوص أخرى مرتبطة به في حـــدود تجربة سابقـــة [22] ، فقلما يخلو نصٌ من تناصّ، يقول صلاح فضل : " ففي فضاء النصّ تتقاطع أقوال عديدة، مأخوذة من نصوص أخرى، ممّا يجعل بعضها يقوم بتحييد البعض الآخر ونقده"[23] ، وهذه المعايير الموضوعة للنصية لا تعني التخلي أو دحض المقولات التي ذُكرت في نحو الجملة ، بل إن "الصلة بين نحو الجملة ونحو النص وثيقة إلى الحد الذي لم تنجح معه كل محاولات التمييز بينهما، إلا إن ذلك لا يعني الإخفاق في وضع تصورات واضحة عن مهام نحو النص، ويرى (فان دايك) أن نحو الجملة يشكل جزءا غير قليل من نحو النص"[24] .

لسانيات النّص والبلاغـــــة : إن الناظر في البلاغة العربية وما تمتلك من أدوات إجرائية ومفاهيمية تتعلق بالنص وبمنتج النص ومتلقيه ليجد أن البلاغة العربية "قد أدركت درجة عالية من التقنية التي تبحث في الأدوات التحليلية الخاصة باللغة، وذلك في نطاق ما يسمح به النظام المعرفي السائد في عصرها، وهذا أكسبها شرعية كي تكون ركيزة في الانطلاق لبناء علم يسعى لتحليل النص / الخطاب"(25) .

ولعل نظرية النظم التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني والتي مفادها" أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها"(26) قد أسهمت بشكل كبير في إرساء النظرية النصية من خلال آرائه التي تخطت النظرة الجزئية في العلاقات التي تربط أركان الجملة إلى النظرة الشمولية للنص التي تمكن المتلقي من الوقوف على جماليات النص الأدبي ، فقد قدم "تحليلات مُدهشة من خلال كشفه عن العلاقات الداخلية في الخطاب الأدبي ، ومن الممكن أن ندعي بأنه قدم نظريـــة مكتملة بكل أسسها الفكرية وإجراءاتها التطبيقية من دون أن نشعر لحظة بانفصاله عن النص أو تعاليه عليه، ولا يمكن أن ندعي بأن تطبيقاته قد تجاوزت الاجتزاء إلى النص الكامل، لكن الواقع أن طبيعة المنهج قد فرضت عليه هذا التوجه، وهو ما يتيح لمن تابعه أن يتعامل بالمنهج نفسه مع النصوص الكاملة، وقد طبق الزمخشري ذلك على الخطاب القرآني تطبيق دقيقا"(27) .

وقد اهتمت البلاغة العربية بتوصيف العملية التواصلية (المتكلم، والسامع، والرسالة ، والمقام) في دراستها للنصوص المتنوعة قرآنا، وحديثا، وشعرا " وفي إطار هذا التوصيف عنيت بمقاصد الخطاب وأحوال المتلقين له ، وشروط الخطاب الناجع الذي يحقّق الفائدة لدى المتلقي ، والمؤشرات اللغوية وغير اللغوية المتحكمة في ذلك، مما أكسب البلاغة العربية أبعادا لسانية وتداولية مهمة، تضمن التواصل المعرفي مع معطيات الدرس الحديث والمعاصر"(28) .

وبما أن السياق والتواصل والعلاقة بين المتكلم والمخاطب أصبحت من صميم البحث في الدراسات اللسانية كان لابد من العودة إلى البلاغة والاستعانة بالمفاهيم والأدوات الإجرائية التي لا غنى عنها في تحليل النص، وقد أشار فان دايك إلى أهمية البلاغة بقوله: "يمكن أن نعد البلاغة السابقة التاريخية لعلم النص إذا ما تأملنا التوجه العام للبلاغة القديمة إلى وصف النصوص ووظائفها المتميزة، إلا أنه لما كان اسم البلاغة يرتبط غالبا بأشكال ونماذج أسلوبية معينة واشكال ونماذج أخرى فإننا نؤثر المفهوم

الأكثر عمومية، علم النص...إن علم النص يمكن يقدم إطارا عاما لدراسة متجددة لجوانب بلاغية في الاتصال"(29).

فالدراسة النصية حاضرة في التراث البلاغي والنقدي، والباحث في العلاقة بين البلاغة واللسانيات النصية يجد الكثير من الأفكار والآراء التي قامت عليها لسانيات النص والتحاليل النصية إنما هي نتاج البحوث البلاغية والنقدية التراثية، وهذه العلاقات التي تجمع بين البلاغة واللسانيات النصية إذا استثمرت فستحدث تحولا كبيرا على مستوى الدراسات الأدبية والنقدية، وستفتح آفاقا جديدة في فهم النص ومعرفة خصائصه(30) .

المبحث الثاني ـ جُـذور المعايير النصية في التراث البلاغـي والنقدي:

السبك في التراث البلاغـــي والنقـــدي : هنالك ثلاثة مستويات لعناصر السبك حددها المشتغلون في علم النص، وهـــي : المستوى الصوتي، المستوى المعجمي، المستوى النحوي، وثمة مستوى رابع يضم عناصر الحبك وهو المستوى الدلالي أو البنية العميقة، ويعد المستوى الدلالي الأساس الذي تقوم عليه البنية السطحية الظاهرة.

1- المســـتوى الصوتـــي : إن منتج الخطاب أو النص يلجأ إلى إحـــدى وسيلتين لتقديم خطابه : (النطق أو الكتابة)، وقد اهتم النقد العربي القديم بهذا الجانب ، وخاصة الجانب الصوتي وذلك لصلته بعملية القبول لدى المتلقي (31) ، فالجاحظ يجعل من المستوى الصوتي أساسا لتقبل النص ومن ثم يمكن فهمه وتحليله، يقول الجاحظ: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ واحدا، وسبك سبكا واحـــدًا، فهو يجـــري على اللسان كما يجري الدهان... وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة ملسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد"(32) ، فهو يرى أن جودة النص الشعري ما كان متلاحم الأجزاء، ويتحقق التلاحم بانتماء الكلمات إلى مستوى واحد من السهولة والليونة حتى كأن البيت كلمة واحدة، وحتى كانت الكلمة بأسرها حرف واحد. وقد تحدث البلاغيون عن وسائل السبك التي تتعلق بالمستوى الصوتي، وذلك في دراستهم: للتجنيس، والسجع، والوزن والقافية، فهذه الوسائل تسهم في السبك الصوتي على مستوى النص الأدبي، ولاسيما أن هذه الوسائل تسير على وفق نمط إيقاعي منتظم يتجلى في مقاطع النص شعرا كان أو نثرًا(33) .

2 ـ المستوى المعجمـــي : يرى علماء لسانيات النص أن هذا المستوى من السبك يتم عن طريق ارتباط الوحدات المعجمية في ذاتها، دون الحاجة إلى أداة ربط تربط بينها، على أن يفســـر بعضها بعضا ويتحقق ذلك من خلال وسيلتين، هما: التكرار، والتضام(34) .

أ ـ التكـــرار : اهتم البلاغيـــون والنقاد القدامى بظاهرة التكرار، لما له من دلالات وأغراض عديدة داخل النص، منها ما ذكره أبو هلال العسكري في باب الإطناب من أن اللجوء إلى التكرار في الكلام لإفادة التوكيد؛ إذ يقول:" استعملوا التكرار ليتوكّد القول للسامع. وقد جاء في القرآن وفصيح الشعر منه شيء كثير، فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ :(**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُـــونَ**)، وقوله – تعالى- : (**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْـــــراً**) (35) ، وذكر ـ أيضا ـ أن التكرار في النص الشعري قد يكون لحاجة ماسّة يتطلبها الموقف ، فيقول: " قال مهلهل :(على أن ليس عدلا من كليب) فكرّرها في أكثر من عشرين بيتا. وهكذا قول الحارث بن عبّاد: (قرّبا مربط النعامة منّى) كـــرّرها أكثر من ذلك ؛ هذا لمّا كانت الحاجة إلى تكريرها ماسّة، والضرورة إليه داعية ، لعظم الخطب، وشدّة موقع الفجيعة"(36) .

وقد تحدث ابن رشيق – أيضا- عن التكرار، ويرى أن للتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فيكون مستحسنا إذا ارتبط بأمور دلالية يقتضيها السياق، كأن يكون على سبيل التشوق والاستعذاب، أو على سبيل التقرير والتوبيخ، أو على سبيل الإشادة والتفخيم، كقول الخنساء:

وإن صخراً لمولانا وسيدنا وإن صخراً إذا نشتو لنحار

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار(37).

ب ـ التضام : ويتجلى التضام في العديد من فنون البديع ، منها: المطابقة، والمقابلة، ومراعاة النظير.

3ـ المســـتوى النحـــوي : وضع علماء العربية النحو لضبط اللغة مخافة اللحن وتجنب الخطأ في القرآن الكريم، فهو أساس دراسة اللغة العربية، وقد شدد البلاغيون على ضرورة مراعاة القواعد النحوية في التراكيب، يقول أبوهلال: "أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل، والخطب، والشّعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب. وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا، ومع سوء التأليف ورداءة الرّصف والتركيب شعبة من التّعمية ... وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في

مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام، ولا يعمّى المعنى؛ وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها"(38) ، فحسن التأليف وجودة التركيب شرط في إنتاج النص؛ كي يتضح المعنى لدى المتلقي، ولا يكون ذلك إلا بمراعاة القواعد النحوية، وقد تحدث عبد القاهر الجرجاني عن ذلك فقال: "الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد، إلّا بمراعاة أحكام النحو فيه، من الإعراب والترتيب الخاصّ"(39)

وثمة بعض الوسائل التي ذكرها البلاغيون والنقاد والتي يتحقق من خلالها الترابط النصي سواء على مستوى البنية السطحية أو البنية العميقة، منها:

أ ـ التقديم والتأخـــــير: من المعلوم أن الجملة في العربية تخضع إلى معيار الرتبة وفق القواعد النحوية، إلا أنه قد يقدم بعضها على بعض؛ لاعتبارات بلاغية يقتضيها السياق ويتطلبها المقام، وللتقديم أغراض بلاغية ذكرها البلاغيون أهمها: الاختصاص، ومراعاة حسن النظم في الكلام، يقول ابن الأثير بأنّ التقديم:" يستعمل على وجهين: أحدهما الاختصاص، والآخر مراعاة نظم الكلام، وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم، وإذا أخر المقدّم ذهب ذلك الحسن"(40) ، وذلك نحو قوله - تعالى - : **[فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ]** [سورة طه ، الآية : 67] ، يقول ابن الأثير:" وتقدير الكلام فأوجس موسى في نفسه خيفة، وإنما قدم المفعول على الفاعل وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصدا لتحسين النظم"(41) . ففي مراعاة حسن النظم يبرز دور التقديم والتأخير في مسألة سبك النص وإظهاره قطعة متماسكة من القول.

ب ــ الحـذف : يُعد الحذف من أهم عناصر السبك عند اللسانيين، وقد حظي الحذف باهتمام كبير عند النحاة والبلاغيين،يقول الجرجاني عن الحذف: هوباب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"(42)، ويشمل الحذف في العربية: حذف الحروف والكلمات وحذف الجملة، وحذف أكثر من جملة. ويشترط عند الحذف وجود قرينة تدل عليه، يقول ابن جني:" قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلّا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"(43) ، ولا يقتصر الحذف على جملة واحدة بل يمتد إلى أكثر من جملة، لطالما كان هذا الحذف لا يؤدي إلى اللبس أو استغلاق العبارة، ومن ذلك قوله- تعالى- : **[يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُـــوَّةٍ]** [سورة مريم،

الآية : 12] ، يقول الزركشي : " حذف يطول تقديره: فلما ولد يحيى ونشأ وترعرع قلنا: **(يا يحيى خذ الكتاب بقوة)**(44) ، والحذف عند البلاغيين يدخل ضمن الإيجاز الذي ينقسم إلى قسمين: إيجاز بالقصر، وإيجاز بالحذف، يقول الرماني: " الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز، والإيجاز على وجهين: حذف، وقصر"(45) .

ج ـ الوصـــــل والفصـــــل : يُعد الوصل والفصل من الوسائل التي تقـوم بوظيفة السبك النصي ، ذلك أنه يتجاوز حدود الجملة الواحدة إلى جمل النص وعباراتـــه، وقد جاء في تعريف البلاغيين أن الوصل : هو عطف جمل بعضها على بعض بحرف العطف(الواو) ، والفصل: ترك العطف بين الجمل والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى(46) ، وتخصيص الوصل بحرف العطف (الواو) دون غيره من حروف العطف ؛ لأن (الواو) لا تفيد إلّا مجرد الربط، وتشريك ما بعدها لما قبلها في الحكم، بخلاف العطف بغير (الواو) فيفيد مع التشريك معاني أخـــرى (47) ، ومبحث الوصل والفصل وجد اهتماما كبيرا من البلاغيين لدوره في بناء وتماسك النص على المستوى اللفظي والدلالي، حتى أن بعض علماء البيان جعلوه حدا للبلاغة، فقالوا إنّ البلاغـــة : هي معرفة الفصل والوصل (48) ، ويرى عبد القاهر الجرجاني أن هذا الباب لغموضه ودقة مسلكه :" لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّا للبلاغة"(49) ، وقد نبه الجرجاني على أهمية الســـياق في الوصل ، ومعرفة ما يناسب من أدوات الربط للسياق ، فيقول: " فليس الفضل للعلم بأن " الواو" للجمع، و" الفاء" للتعقيب بغير تراخ، و" ثم" له بشرط التراخي، و" إن" لكذا و"إذا" لكذا، ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت شعرا وألفت رسالة أن تحسن التخير، وأن تعرف لكل من ذلك موضعه"(50) وأشار الجرجاني ـأيضا ـ إلى أن الترابط بين الجمل قد يتحقّق بالفصل كما هو متحقق بالوصل ، فالعطف قد لا يستساغ في كل سياق ، فيستحسن تركه ؛ والترك لا يؤدّي إلى افتراق الجمل وتجريدها من الارتباط، يقول عبد القاهـــر: " يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئا سواها، كما لا تكون الصفة غير الموصوف، والتأكيد غير المؤكد"(51) ، فهو يبين بعض المواضع التي لا تعتمد على العطف للترابط فيما بينها، بل تعتمد على علاقات أخرى قامة بينها.

الحبك في التراث البلاغـــــي والنقدي: والحبك : هو العلاقات المعنوية التي تربط بين أجزاء النص، وقد قدم البلاغيون والنقاد الكثير من الإشارات إلى ذلك، فقد ذكر ابن طباطبا ما ينبغي للشاعر أن يتوخاه عند تأليف شعره، فقال:" وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه فينسي السامع المعنى الذي يسوق القول إليه"[52]، فتناسق الأبيات وتلاؤمها وحسن تجاورها من الأمور التي يجب أن يتوخاها الشاعر؛ لأنها تفضي إلى انتظام المعنى وحسن القبول لدى المتلقي، وفي موضع آخر أشار إلى أن جودة النص الشعري تتأتى بانتظام أبياته واتساق أوله مع آخره حتى تكون القصيدة كوحدة واحدة، فيقول: ‘‘وأحسن الشعر ما ينتظم فيه القول انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه، قائله؛ بل يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضيفه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا... حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا" [53]، وغير بعيد عن ذلك ما ذكره ابن الأثير في ضرورة الترابط المعنوي بين أجزاء الكلام، فيقول: "أما المؤاخاة بين المعاني فهو: أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبي ؛ مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف، وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة"[54]، كما تحدث العلوي عن حسن الانتقال من معنى إلى معنى ، وأن المتكلم ينبغي أن يكون مجيدًا للتخلص سواء كان شاعرا أو خطيبا، فيقول :" ينبغي لكل متكلم من شاعر أو خطيب إذا كان قد أتى بما يصلح من الافتتاحات الحسنة فلا بد له من مراعاة التخلص الحسن ..، وعلى قدر براعة الشاعر والخطيب والمصنف يكون حسن التخلص إلى المقصود"[55]

فهناك الكثير من الإشارات في التراث يتبين من خلالها أن البلاغيين والنقاد كانوا على وعي تام بمفهوم الحبك ، وذلك من خلال تشديدهم على ضرورة تلاحم أجزاء الكلام والمؤاخاة بين المعاني وانتظامها، وحسن التخلص من معنى إلى آخر، وغيرها من المفاهيم التي جاءت نتيجة لاستقرائهم وبحثهم ومحاولة تحديد ووضع شروط القول البليغ. وقد ذكروا عدة طرق ووسائل يتم بها الربط بين أجزاء النص ، منها: المزاوجة ، والتقسيم والجمع[56] ، والملائمة[57] .

القصديـــــة في التراث البلاغـــــي والنقـــــدي : يعد معيار القصدية أصلا من أصول إنتاج الكلام لدى البلاغيين والنقاد، إذ لا يعتد بكلام لا يحمل مقصدية ما، يقول عبد

القاهر الجرجاني:" وكان مما يعلم ببدائه المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده"(58)، فالجرجاني يعد القصدية في الكلام من الأمور البديهية ، وكان أبو هلال العسكري قد أشار إلى ارتباط معنى الكلام بالقصد الذي أراده المتكلم بقوله إن: "المعنى هو القصد الذي يقع به القول على وجه دون وجه وقد يكون معنى الكلام في اللغة ما تعلق به القصد"(59) ، وفي موضع آخر أشار إلى أنّ القصد هو الغرض من الكلام، إذ يقول: ‘‘والغرض هو المقصود بالقول..وسمي غرضا تشبيها بالغرض الذي يقصده الرامي بسهمه وهو الهدف"(60)(61) وقد ذكر ابن رشيق في كتابه العمدة أن القصدية شرط في الشعر، فيقول: "الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر؛ لأن من الكلام موزوناً مقفى وليس بشعر؛ لعدم القصد والنية"(62)، فالقصدية تعد معيارا من معايير نجاح النص عند النقاد والبلاغيين، وأساسا لنجاح التواصل بين المنتج والمتلقي.

المقبولية في التراث البلاغي والنقدي : لقـــي معيار المقبولية اهتماما كبيرا من البلاغيين والنقاد، إذ كانوا حريصين على مراعاة أحوال المتلقين، ولعل هذا الاهتمام هو امتداد لاهتمام وحرص الشعراء والخطباء منذ العصر الجاهلي على أن يلقى كلامهم استحسانا وقبولا من المتلقين، وثمة إشارات كثيرة في مصنفاتهم إلى هذا الأمر. فمن الإشارات التي ذكرها النقاد لاهتمام الشعراء بالمتلقي، ما ذكره ابن قتيبة في توضيح السبب وراء وقوف الشعراء على الأطلال في مقدمات قصائدهم، فيقول: "أنّ مقصّد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرّبع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدّة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه"(63) ، وقد كان للنقاد إشارات كثيرة إلى ابتداءات القصائد وخواتيمها والدعوة إلى إجادة الابتداء لأنها أول ما يقرع السامعين، والخواتيم لأنها ألصق بالنفس يقول ابن رشيق: "حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى المديح، سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق بالنفس؛ لقرب العهد بها؛ فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح"(64)، وكان ابن طباطبا قد ذكر ما يتوجب على الشاعر مراعاته في شعره ، فقال:" فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة مستحسنة مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله إليه، مستدعية لعشق المتأمل في محاسنه والمتفرس في بدائعه" (65)، ومن الإشارات- أيضا- ما ذكره السكاكي في سياق حديثه عن أسلوب الالتفات

الذي يتم عن طريق انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب وتأثيره على المتلقي، فيقول إن:" العرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ باستدرار إصغائه"[66]، ولحرصهم على حسن القبول في النصوص الإبداعية فقد وضع النقاد والبلاغيون شروطا لصياغة النص تتعلق بفصاحة الكلمة وبسلامة البنية التركيبة للنص، فشروط فصاحة الكلمة: تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، والكراهة في السمع، و ما يخص البنية التركيبية: سلامتها من ضعف التأليف، وتنافر الألفاظ، والتعقيد المعنوي واللفظي.

الإعلاميـــــة في التراث البلاغـــي : ميّز البلاغيـــون والنقاد بين مستويين من الخطاب، المستوى الأول: نصوص ذات كفاءة إعلامية منخفضة، وهي النصوص الظاهرة المباشرة والتي لا يحتاج فيه المتلقي إلى النظر والتدبر بحثا عن معناها، إذ الغاية منها الفهم والإفهام بأي طريقة كانت، وذلك ما نلحظه في كلام الجاحظ حين يقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي : جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والأفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[67]، وبما أن الكلام قائم على الفهم والإفهام فلابد من وجود طبقات للكلام وفق طبقات المخاطبين، يقول أبوهلال:" وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السّوقي بكلام السّوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه؛ فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"[68] ، ويتجلى المستوى الثاني في النصوص ذات الكفاءة الإعلامية العالية، وهي النصوص الإبداعية التي تتحقق فيها الجدة والخروج عن المألوف، وهي وإن كانت عالية الكفاءة إلا أنها تتفاوت في درجة كفاءتها، لذلك قسم البلاغيون البلاغة إلى مراتب حسب كفاءة النص واستيفائه لمقومات البلاغة من مراعاة الأحوال والمقتضيات التي بها يرتقي الكلام ويزداد حسنًا وجمالًا، ويعلو قدره في ميزان البلاغة؛ فأعلاها ما يصل إلى حد الإعجاز، ويتمثل في القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه ونظمه ومطابقته لمقتضيات الأحوال المختلفة مع دقة التعبير وقوة التأثير، وأسفلها: وهي الكلام الفصيح الذي طابق أدنى مطابقة وليس تحته إلا ما يلتحق بأصوات الحيوانات، وبينهما مراتب كثيرة متفاوتة في درجاتها، يعلو بعضها على بعض بحسب اختلاف المقامات ومراعاة الخصائص والاعتبارات المناسبة، والبعد عن أسباب الإخلال بالفصاحة[69] ، ففي النصوص

الإبداعية: "يفضل بعض الكلام بعضا، ويتقدم منه الشيء، ثم يزداد فضله ذلك وترقي منزلة فوق منزلة، ويعلو مرقبا بعد مرقب، ويستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتستوى الأقدام في العجز"(70).

المقامية في التراث البلاغي والنقدي : إن الناظر إلى ما اختطه البلاغيون والنقاد عن المقام ودوره الأساسي في عملية التواصل يجد أنهم قد تنبهوا مبكرا إلى أن اللغة هي ظاهرة اجتماعية يمكن تحليلها في إطار المواقف الاجتماعية المختلفة التي تسمى مقاما، وعلى ذلك فإن المقام يختلف ضرورة بحسب المقام الذي قيل فيه، ولعل مقولتهم الشهيرة لكل (مقام مقال)، ومقالتهم بأن البلاغة هي : (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) تعدّ أساسا قامت عليه الدراسات البلاغية والنقدية، ولا يمكن الحديث عن النص أو الخطاب دون استحضار السياق، يقول تمام حسان: "وإذا كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين بألف سنة تقريبا على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي (المقام والمقال) باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب من الكشوفات التي جاءت نتيجة لمغامرة العقل المعاصر في دراسة اللغة. وفكرة المقام هذه هي المركز الذي يدور حول الدلالة الوفية في الوقت الحاضر وهو الأساس الذي يبنى عليه الشق أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى الثلاثة"(71) .

ونشـــير إلى هنا إلى ما ذكره الجاحظ نقلا عن بشـــر بن المعتمر في تعلم أصول الخطابة ، إذ يقول : " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"(72)، وقد ذكر ابن طباطبا أن من أسباب قبول الشعر موافقته للمقام، فقال:" ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه علة أخرى؛ وهي موافقته للحال التي يعد معناه لها كالمدح في حال المفاخرة وحضور من يكبت بإنشاده من الأعداء ومن يسر به من الأولياء. وكالهجاء في حال مباراة المهاجي والحط منه حيث ينكى فيه استماعه له... فإذا وافقت هذه المعاني هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستمعها"(73) ، وفي تفاوت مقامات الكلام باختلاف الظروف المحيطة به، يقول السكاكي : " لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ومقام المدح يباين مقام الذم ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل"(74)، والسكاكي وإن تحدث عن السياق الخارجي والظروف المحيطة والملابسات فإنه لم يغفل البناء الداخلي للنص،

فيقول:" إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال"(75)، فارتفاع شأن الكلام واستحسانه وقبوله يكون في جودة الصياغة وتعالق الكلمات بعضها مع البعض وفق مقتضى الحال، فالحال: هو الأمر الداعي للمتكلم إلى إيراد الكلام على وجه مخصوص، أي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما، وهي مقتضى الحال فقضية المقام والمقال ومراعاة مقتضى الحال هي معيار أصيل في النظم وتحليل المعنى عند النقاد والبلاغيين، وهي مقياس لجودة الكلام وحسنه.

التناص في التراث البلاغـــي والنقدي : مما لا شك فيه أن النقاد والبلاغيين قد تناولوا معيار التناص في مصنفاتهم، وذلك تحت مسمى (السرقات الشعرية) وتنطوي تحته كثيرا من المصطلحات تحمل هذا المفهوم، فمن المصطلحات التي تداولوها: الغصب، الإغارة، الاختلاس، الاجتلاب، الانتحال، الاقتباس، التضمين ، الاهتدام ، النســخ ، السلــخ، المسخ، الإتباع، الاحتذاء.

فممن تناول التناص أبوهلال العسكري تحت مسمى (حسن الأخذ)، تحدث فيه عن ضروبه، والحسن والقبيح منه، وقد ذكر رأيه في التناص وما يتوجب على الشاعر إذا أخذ معنى من غيره، فيقول: "ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممّن تقدّمهم والصبّ على قوالب من سبقهم؛ ولكن عليهم- إذا أخذوها- أن يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها؛ فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بها ممّن سبق إليها"(76) ، فمسألة التناص وأخذ اللاحق من السابق لا غنى عنه فـ"لولا أنّ القائل يؤدّى ما سمع لما كان في طاقته أن يقول؛ وإنما ينطق الطّفل بعد استماعه من البالغين" (77) ، والتفاضل بين السابق واللاحق في جودة التركيب وحسن الصياغة والتأليف لإخراجها بصورة تفوق سابقتها. وقد تحدث ابن الأثير– أيضا - عن التناص تحت مسمى (السرقات الشعرية)، وفصل القول فيه وفق ما يراه، وابتدأ ببيان فائدة التناص وكيفية التعاطي مع المعنى المأخوذ، فيقول:" واعلم أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك في أخذ المعاني؛ إذ لا يستغني الآخر عن الاستعارة من الأول، لكن لا ينبغي لك أن تعجل في سبك اللفظ على المعنى المسروق فتنادي على نفسك بالسرقة، فكثيرا ما رأينا من عجل في ذلك فعثر، وتعاطى فيه البديهة فعقر، والأصل المعتمد عليه في هذا الباب التورية والاختفاء بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب،

وأظرف من عنقاء مغرب في الإغراب"[78]، وقد ذكر أنه ألّف كتابا خاصا عن السرقات الشعرية وقسمه إلى ثلاثة قسام، فقال:" واعلم أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثروا، وكنت ألفت فيه كتابا، وقسمته ثلاثة أقسام : نسخا، وسلخا، ومسخا.

أما النســـــخ فهو : أخذ اللفظ والمعنى برمته ، من غير زيادة عليه ، مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب. وأما السلخ فهو : أخذ بعض المعنى ، مأخوذا ذلك من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ. وأما المسخ فهو : إحالة المعنى إلى ما دونه ، مأخوذا ذلك من مسخ الآدميين قــردة"[79] .

ومن خلال ما سبق ذكره يتبين مدى تجذر المعايير النصية في التراث البلاغي والنقدي، وأن هذه المفاهيم قد تناولها البلاغيون والنقاد وأشاروا إليها في مصنفاتهم، فالبلاغة مثلما أشار الباحثون بأنها السابقة التاريخية لعلم النص.

الخاتمـــــــة:

من أهم النتائج التي توصل إليها البحث ما يلي :

1ـ تتفق المعايير النصية التي وضعها دي بوجراند مع الكثير من المفاهيم والأدوات البلاغية لتحقيق الترابط والتماسك النصي.

2ـ ففي معيار السبك تحدث البلاغيون عن الوسائل التي يتحقق بها الترابط النصي، كالحذف، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير.

3ـ ويتجلى معيار الحبك في إشارات البلاغيين والنقاد إلى ضرورة التماسك الدلالي بين أجزا ء النص، كانتظام المعاني، والمؤاخاة بينها، وحسن الابتداء وحسن التخلص.

4ـ أما في معيار القصدية فقد اعتبر البلاغيون والنقاد أن القصدية من بديهيات الكلام لمعرفة غرض المتكلم ومعناه.

5ـ وفي معيار المقبولية، أكد البلاغيون دور المتلقي في استحسان النص وقبوله أو رفضه.

6ـ تتمثل الإعلامية في مستويات الخطاب التي أشار إليها البلاغيون، وتفاوت مراتب الكلام بحسب اختلافات المقامات ومراعاة الخصائص والاعتبارات.

7ـ أما معيار المقامية، فهو يمثل أساسا في النظرية البلاغة إذ أن البلاغة عندهم: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته. فلا يمكن الحديث عن النص أو الخطاب دون استحضار السياق.

8ـ وفي معيار التناص ، فقد تناوله البلاغيون والنقاد تحت مسميات عدة منها: السرقات الشعرية، والاقتباس، والتضمين، والانتحال.

وأخيرا، يتضح من خلال هذا البحث أن البلاغة ولسانيات النص كليهما يسعيان إلى إيجاد قواعــد لإنتاج النص وتلقيه ، وأن الكثير من المفاهيم التي جاءت به اللسانيات النصية والشروط الواجب توافرها في النص قد ذكرها علماؤنا وتناولوها في مصنفاتهم؛ لذا أقر الباحثون في علم اللغة أن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص. وبناء على ذلك فإنه متى تم استثمار هذه العلاقات بين القديم والحديث فستسفر عن تحول كبير على مستوى الدراسات الأدبية والنقدية، وستفتح آفاقا جديدة في فهم النص ومعرفة خصائصه.

الهوامـــــــــــــش :

1 - عبدالرحمن بو درع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن، ضمن بحوث المؤتمر الدولي الأول الدراسات القرآنية، 2013،ص18.
2 - انظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ط 2001، مج1، ص39.
3 - انظر: المرجع السابق،مج1، ص39.
4 - انظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار االبيضاء،ط2، 2001م، ص14- 15
5 - فان دايك ، بنى ووظائف، مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة منذر عياشي، ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، المغرب،ط1، 2004م،ص147
6 - عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص32.
7 -انظر: روبرت دي بوجراند، اّلنص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة،ط1، 1998،ص5- 6.
8 - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء القاهرة،ط2000،1،ج1،ص36.
9 - جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النص، ص17-18.
10- المرجع السابق: ص 18.
11 - إلهام أبو غزالة، علي خليل أحمد، مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند، دار الكتاب، ط1993،1، ص25.
12 - انظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص103- 105. صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق،ج1، ص33 -34. سعد مصلوح، نحو آجرومية للنص الشعري(دراسة في قصيدة جاهلية) مجلة فصول، مج10ع 1-2، ص154—155.
13 - انظر: سعد مصلوح، نحو آجرومية للنص الشعري، مجلة فصول، ص154. أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه تجديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ط1، 2001، ،ص76.
14 - انظر: دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص،103
15 - انظر: المرجع السابق، ص١٠٣
16- دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص 103.
17 - انظر: إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد: مدخل إلى علم لغة النص، ص 30 – 31.
18 - انظر: محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة بحث في النظرية، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1990 ، ص: 88 .
19 - انظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 252.
20 - المرجع السابق، ص23- 24
21 المرجع السابق، ص 104.
22 - انظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص33
23 - صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للطباعة والنشر، القاهرة، ط1 ،2002 ، ص128
24 - سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1997، ص135.
25 - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص324

26 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، مطبعة المدني القاهرة"ط3، 2003ص81.
27 جمعان بن عبدالكريم، إشكالات النص دراسة لسانية نصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط1، 2009, ص257.
28 باديس الهويمل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، مجلة أبحاث في الأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع7، 2011، ص172.
29 - سعيد حسن بحيري، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ط2001ص23.
30 - انظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص231-232
31 - محمد عبد المطلب، جدلية الإفراد والتركيب، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، 1995, ص89.
32 - الجاحظ، البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال بيروت، ط2002، ج1، ص75.
33 - انظر: عزة شبل، علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب القاهرة، ط2، 2009، ص127
34 - انظر: المرجع السابق، ص105
35 - أبوهلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت،ط1998، ص193.
36 - المرجع السابق، ص194
37 - انظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، تح محيي الدين عبدالحميد، دار الجبل بيروت، ط5، 1989 ج2،ص74- 76.
38 - أبوهلال العسكري، الصناعتين، ص161
39 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح محمود شاكر، مطبعة المدني القاهرة، ص58.
40 - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت ، ط2000، ج2،ص37.
41 - المرجع السابق، ج2، ص37-38
42 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص164
43 - ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، ج2، ص362.
44 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1957، دار إحياء الكتب العربية، ج3، ص195.
45 - الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله محمد- زغلول سلام، دار المعارف مصر، ط3، 1976، ص76
46 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ج1، ص222، وانظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج3، ص97.
47 - انظر تفصيل ذلك: التفتازاني، المطول في شرح تلخيص المفتاح، تح عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط3، 2013، ص434- 435.
48 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص91. أبوهلال العسكري، الصناعتين، ص438
49 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص222.
50 المرجع السابق، ص 250.
51 - المرجع السابق، 227.
52 - ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي القاهرة، ص209.
53 - المرجع السابق، ص213.
54 - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص276.

55 - العلوي، الطراز لأسرار البلاغة، المكتبة العرية بيروت، ط1، 2002,ج3، ص102.
56 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص93،
57 - انظر ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص165
58 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص530
59 - أبوهلال العسكري، الفروق اللغوية، تح محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص33
60 - المرجع السابق، ص35.
61 _ المرجع السابق، ص35
62 - ابن رشيق، العمدة، ج1، ص119
63 - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث القاهرة، ط2002، ج1، ص76.
64 - ابن رشيق، العمدة، ج1، ص217
65 - ابن طباطبا، عيار الشعر، ص203
66 - السكاكي، مفتاح العلوم، ص199
67 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص82
68 - أبوهلال، الصناعتين، ص29
69 انظر: القزويني، الإيضاح، ج1، ص46-47
70 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص35
71 - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب د.ت، ص337.
72 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص131
73 - ابن طباطبا، عيار الشعر، ص22 - 23
74 السكاكي، مفتاح العلوم، تح نعيم زرزور، المكتبة العصرية بيروت، ط2، 1987, ص168
75 -- المرجع السابق ، ص168
76 - أبوهلال العسكري ، الصناعتين،ص196 .
77 - المرجع السابق، ص 196 .
78 - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص343.
79 المرجع السابق، ج2، 345.